

محاضرة
"الأسرة المسلمة والتحديات الثقافية المعاصرة"
أ.د. حنان عبد المجيد -
المدير التنفيذي لوحدة ضمان الجودة
كلية الإعلام - جامعة القاهرة
٢٠١١-٣-٨



في أمسية من الأمسيات التي أعقبت الثورة المباركة في مصر ثورة الخامس والعشرين من يناير كان موعداً مع محاضرة نظمها مركز الدراسات المعرفية بعنوان "الأسرة المسلمة والتحديات الثقافية المعاصرة" ألقته أ.د. حنان عبد المجيد - كلية الإعلام. وذلك يوم الثلاثاء ٣ من ربيع آخر ١٤٣٢هـ / الموافق ٢٠١١-٣-٨ بقاعة رواق المعرفة. جاء فيها

مقدمة:

- n يدور حديثنا اليوم حول الأسرة المسلمة والتحديات الثقافية المعاصرة.
- n والحديث عن الأسرة المسلمة عادةً ما يتمحور حول رعاية الإسلام للأسرة واهتمامه بها، ودور الأسرة في بناء دعائم المجتمع المسلم إلى غير ذلك من القضايا...
- n أما الحديث حول التحديات الثقافية المعاصرة التي تواجه الأسرة فيتجه غالباً إلى مظاهرها العديدة، وعواملها وآثارها المتشعبة إلى آخره...
- n لكن دعونا اليوم نخرج عن هذه الدائرة المألوفة والمتوقعة في الحديث، واسمحوا لي أن أبدأ بمدخل نقدي ربما يمثل في رأي الدور الحقيقي لعلم الاجتماع.

إذا أردنا أن نقدم رؤية تحليلية دقيقة للتحديات الثقافية المعاصرة التي تواجه الأسرة المسلمة، يحتاج الأمر إلى الاستعانة بمدخل علمي جديد يسمح برصد مظاهر هذه التحديات وأسبابها وتأثيراتها على كيان الأسرة، ويساعد في تحديد سبل التعامل مع هذه التحديات. وأتصور أن المدخل العلمي الملائم الآن أي كانت أدواته يجب ألا يضعنا في موقف رد الفعل، بل يجعلنا في موقف الفعل الإيجابي.

ومن المفيد أن يستعين هذا المدخل بأدوات قادرة على اكتشاف منطلقات جديدة تساعد على تحفيز التماسك الأسري، وإحياء دور الأسرة المأمول بما يضمن استعادة الاستقرار والأمن الاجتماعي.

وقد يستعرب بعضنا إذا قلنا أن هذه المنطلقات يمكن أن تتولد من داخل التحديات نفسها، وربما يتساءلوا: كيف لنا أن نولد منطلقات الإصلاح من رحم التحديات؟ وكيف لهذه المنطلقات أن تعيد تنظيم البناء الأسري ليصبح نموذجاً عصرياً للأسرة كما أقرها الإسلام؟ وتعود الأسرة المسلمة نسقاً يسير وفق الأسس القرآنية ويعمل على تحقيق الأهداف المنشودة التي تتكامل مع المقاصد الإسلامية .

الدراسة العلمية للأسرة والتحديات الثقافية الزائفة

ثمة تحديات ثقافية زائفة يُروج لها من قبل بعض المهتمين بقضايا الأسرة، تُطرح بوصفها أخطر ما يهدد كيان الأسرة في الوقت الراهن، وربما ينشغل بعضنا بالتصدي لمثل هذه التحديات الزائفة التي قد تخفي وراءها تحديات حقيقية لا يلتفت إليها كثيرون رغم تهديدها المباشر للأسرة والمجتمع المسلم.

وحتى ندرك كيف تتشكل هذه التحديات الثقافية الزائفة نحتاج إلى استعراض لمحة تاريخية مختصرة حول نشأة وتطور الدراسة العلمية للأسرة في عالمنا العربي.

n نشأ علم الاجتماع في سياق فكري وثقافي متعالٍ و متحيز حيث وضع مؤسسه مخططاً مثاليًا يفترض تطابق أنماط الحياة الإنسانية لدى جميع شعوب الأرض.

n ويظهر "علم الاجتماع الأسري" كأحد أقدم ميادين علم الاجتماع، أصبحت الأسرة تشكل موضوعاً خاصاً يتضمن قضايا فرعية كثيرة.

n لكن الدراسات المتعلقة بالأسرة لم تكن استثناءً من الرؤية الفكرية الغربية المتحيزة، فاصطبغت بنفس الصبغة التي ميزت علم الاجتماع العام الذي بدا كرد أكاديمي على تحدي الحداثة.

n وارتبط ظهور هذه الدراسات بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الحادة التي شهدتها أوروبا، والتي نتج عنها آثار سلبية من بينها ضعف التكامل والترابط الاجتماعي، مما جعل حياة الأفراد أكثر فردية وانعزاليًا.

n جاءت جهود علماء الاجتماع في الأساس تركز على فهم التحولات التي طرأت على المجموعات الاجتماعية، من أجل الوصول إلى حلول تساعد على مواجهة مظاهر التفكك الاجتماعي. ومن هنا تركزت الدراسات الكلاسيكية للأسرة حول مشكلات الأسرة الأوروبية باعتبارها نموذجًا عامًا للمشكلات الأسرية في المجتمعات الإنسانية كافة.

n ورغم عدم دقة بعض المقولات الغربية حول قضايا الأسرة، فقد نقل الباحثون العرب نتائج الدراسات الغربية وكأنها حقائق لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، دون مراعاة للخصوصية الاجتماعية التي تتميز بها المجتمعات الإسلامية، متأثرين بالفكرة التي روج لها الغرب من أن ثمة تطابق في أنماط الحياة الإنسانية.

n انتشرت في الدراسات العربية مقولات الدارونية الاجتماعية في تفسير قضايا الأسرة. وتبنى البعض مقولات المدرسة الأنثروبولوجية.

n ثم انتشرت موجة الدراسات الإمبريقية في الانتشار في النصف الثاني من القرن ٢٠ واستمرت حتى وقتنا الراهن رغم الصعوبات المنهجية الكثيرة التي تواجه مثل هذه الدراسات في مجتمعاتنا الإسلامية.

n الاعتماد على المداخل والتصورات الغربية أدى إلى تزييف الوعي خصوصًا فيما يتعلق بالتحديات الثقافية التي تواجه الأسرة المسلمة، الأمر الذي ساعد على طرح تحديات زائفة لا ترتبط بالواقع قُدمت بوصفها التحديات الأولى بالمواجهة.

n انشغل كثير من الباحثين بالتصدي لمجموعة من التحديات الزائفة، في حين توارت التحديات الحقيقية التي ترسم واقع مشكلات الأسرة المسلمة وتعكس ملامح الأزمة المجتمعية.

من أهم التحديات الثقافية الزائفة ما عُرف بـ "السيطرة الذكورية"، وهي فكرة تدخل في إطار النظرية البطريركية.

أهم افتراضات هذه النظرية:

n أن الرجال هم مصدر الاضطهاد الواقع على النساء.

n سيطرة الأب (البطريرك) ليس على نساء العائلة فقط، وإنما على الذكور الأصغر سنًا أيضًا .

n اهتم عالم الاجتماع الفرنسي "بيير بورديو" بمسألة السيطرة الذكورية على الأنثى بزعم أن الطريقة التي يتم بها فرضها ومكابقتها، تشير إلى علاقة اجتماعية تتسم بالعنف الرمزي، وتقدم فرصة ممتازة للامساك بمنطق السيطرة التي تتم ممارستها باسم مبدأ رمزي معروف ومعترف به من جانب المسيطر وكذلك من جانب المسيطر عليه .

n الباحث "هشام شرابي" قام بتوظيف مفهوم النظام الأبوي أو البطريركي لفهم وتحليل العلاقات الاجتماعية وأنماط الممارسات السياسية والبنية الثقافية في المجتمعات العربية، معتبراً أن هذا المفهوم قادرٌ على تفسير مكامن التخلف والعجز العربي، ومن خلال هذا المفهوم وسم المجتمعات العربية كافة بالجمود والتحجر وعدم القدرة على التغيير من الداخل.

n لقيت هذه التصورات استحساناً من أنصار الحركة النسوية، واستخدم مصطلح "السيطرة الذكورية" بوصف تحدٍ ثقافي يستلزم المواجهة من خلال دعم وتعزيز ما يعرف بـ "تمكين المرأة".

n تأصل مصطلح تمكين المرأة عملياً عام ١٩٨٥ من خلال لقاء مجموعة DAWN (التنمية البديلة بمشاركة المرأة من أجل عهد جديد). وأصبح وسيلة لمواجهة التحدي الثقافي المزعوم: "البطريركية".

n حددت الحركة النسوية مجموعة من الميكانزمات للتغلب على هذا التحدي تتمثل في: تحليل تبعية النساء، والقضاء على جميع أشكال التمييز على المرأة، وتحقيق المساواة السياسية، وحرية الاختيار، واتخاذ التدابير والإجراءات لمنع عنف الرجال على النساء.

n في هذا السياق علت أصوات تطالب بتغيير قوانين الأحوال الشخصية، وإلغاء قوامة الرجل على المرأة، وعدم النظر لدور المرأة في المجتمع على أنه لتربية الأولاد، وعملت الحركات النسوية على بناء مؤسسات وأندية ومراكز وتجمعات خاصة بها، وأقيمت فعاليات ومحاضرات وندوات تروج لمفهوم تمكين المرأة. وتبنت جهات دولية وغربية تمويل هذه الفعاليات والمؤسسات.

دعونا نتأمل هذا التحدي الزائف في النقاط التالية:

n إن خلق تحدٍ زائف (البطريركية الأسرية) أدى إلى توليد مدخل زائف للمواجهة (تمكين المرأة).

n خلطت الميكانيزمات المقترحة لتمكين المرأة بين الحق والباطل، فتم استغلال تمكين المرأة كمدخل للهجوم على مبادئ الشريعة المنظمة للبناء الأسري والتي تتحدد من خلالها وظائف المرأة والرجل داخل الأسرة.

n اقترنت الدعوة إلى تمكين المرأة باختراق نسق القيم الأسرية وإسقاط المعايير والسلوكيات السائدة في الأسرة المسلمة، وتم تصوير تلك القيم والمعايير والسلوكيات المرغوبة دينيًا بوصفها غير مرغوبة اجتماعيًا.

n مهد اختراق نسق القيم الأسرية للتحلل من الضوابط الحاكمة للنسق الأسري، مما يهدد باستقرار العلاقات الأسرية كما يهدد أيضًا الدور المنوطة به الأسرة والمتعلق بغرس القيم الأصيلة في أفرادها وخصوصًا النشء، وهذا بدوره يهدد النسق العام للقيم في المجتمع.

n في هذا السياق تم اعتماد نوع من الصراع القيمي على عدة مستويات: صراع بين الرجل والمرأة، صراع بين الوالدين والأبناء، صراع بين الأسرة والمجتمع، صراع بين المدني والديني، صراع بين الأصيل والوافد، وفي إطار هذه الصور المختلفة للصراع يظهر الخلل الوظيفي للأسرة، مما يؤثر سلبيًا في العلاقات البنائية سواء بين أعضاء الأسرة الواحدة أو بين الأسر المختلفة في الإطار القرابي أو الجيرة.

الجوانب الأسرية المهددة في وجود التحديات الثقافية

ثمة جوانب يمكن أن تتعرض للتهديد المباشر وغير المباشر نتيجة وجود عدد من التحديات الثقافية المعاصرة، وهي جوانب يجب تعزيزها لضمان تماسك الأسرة، ومن ثم دعم قدراتها على مواجهة التحديات كافة

١. البناء الأسري

n حدد الإسلام مجموعة من القواعد تضمن تماسك البناء الأسري، أولى هذه القواعد التي وضعها الإسلام لبناء الأسرة تبدأ قبل الزواج وتتمثل في حسن الاختيار

n جاء في التوجيه النبوي قوله ٢: تُنكح المرأة لأربع لحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك. وقوله ٣: إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض).

٢. القيم والمعايير الأسرية

n ثمة قيم أربع يمكن اعتبارهم قيم "نواة" تتأسس عليهم كل القيم الأسرية المرغوبة، ولذلك تحتاج إلى التأكيد عليها، وهي قيم الوحدة والسكن والمودة والرحمة، وهي قيم

أشار إليها المولى في قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} (الروم: ٢١).

n وما لاشك فيه أن دعم القيم والمعايير الإسلامية التي حض عليها القرآن الكريم، تعد
ضمان لاستقرار الأسرة في وجه التحديات المختلفة التي تهدد الكيان الأسري.

٣. المسؤوليات الطبيعية والاجتماعية للأسرة

n ثمة مسؤوليات طبيعية واجتماعية تنسجم مع الفطرة تقع على عاتق الأسرة على
رأسها: (التغذية - التربية - الرعاية - التنشئة - الضبط الاجتماعي).

n وضع الإسلام مجموعة من القواعد المتوازنة تحدد التبعات والمسؤوليات والواجبات
والحقوق للزوج والزوجة على السواء، تطبيقاً لقول الله تعالى: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي
عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} (البقرة: ٢٢٨).

n وعلى أساس هذا المبدأ ألزم الإسلام الرجل برعاية أهل بيته، كما ألزم المرأة برعاية
بيت زوجها. وبذلك جعل الإسلام مسؤولية رعاية الأسرة مشتركة بين الزوجين. مما
يتطلب منهما أن يتعاونوا معاً في رعاية الأولاد. قال الرسول ﷺ: (...والرجل راع في
بيته وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن
رعيته). مما يعني تكامل الأدوار.

n شاركت المؤسسات الحديثة الأسرة في بعض الأدوار، لكنها لم تسحب منها أي من
أدوارها، مما ضاعف من مسؤوليات الأسرة، ولم يقلصها، بل أضاف إليها مسؤوليات
جديدة تتعلق بتشديد التوجيه والمراقبة، ولذلك يمكن اعتبار وجود المؤسسات
والتنظيمات الحديثة أحد التحديات الثقافية الخطيرة التي تستوجب دعم الأسرة بدرجة
أكبر حتى تتمكن من منافسة هذه المؤسسات التي فرضت عليها كثرية في بعض
الأدوار.

٤. شبكة العلاقات الأسرية

n تتميز الأسرة بوجود تفاعل مباشر وعميق بين أفرادها، ويؤثر نمط هذا التفاعل
وطبيعته على العلاقات والروابط الاجتماعية في المجتمع، وكلما كانت العلاقات
الأسرية قائمة على أسس وروابط متينة، كلما تمتع المجتمع بالاستقرار والوحدة
والترابط بين أفرادها.

n لذلك أمر القرآن الرجال بمعاشرة نساءهن بالمعروف حتى في حال غياب مشاعر
الحب، فالمعاملة الحسنة بين الزوجين قائمة على مبدأ تبادل الحقوق وليس على أساس
المحبة أو الكره. قال تعالى: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ
تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} (النساء: ١٩).

n المعاشرة بالمعروف هي أساس التوافق الأسري الذي يعد بدوره ضرورة تُمكن الأسرة من أداء دورها في إشباع الحاجات الأساسية والفرعية لأعضائها، وفي توفير الأمن المادي والمعنوي لهم، ويساعد على غرس القيم الإنسانية الإيجابية، ويضمن جواً مناسباً لتنشئة الصغار، بما يعود بالنفع على المجتمع كله.

n باستعراض الجوانب السابقة يتضح أن دعم الأسرة وتقويتها في مواجهة التحديات الثقافية المعاصرة لا يتحقق إلا من خلال إحياء الأسس الإسلامية في بناء الأسرة، وتعزيز القيم والمعايير الإسلامية، ويحتاج الأمر أيضاً إلى تصحيح بعض المفاهيم، واستعادة الوعي بمفاهيم الأسرة الواردة في القرآن الكريم، حتى نستعيد استقرار البناء الأسري، وتماسك العلاقات الأسرية على الصورة التي أرادها المولى عز وجل.



كيف تتولد منطلقات الإصلاح الأسري من رحم التحديات الثقافية

إذا تصورنا أن ثمة تحدي يواجه أسرة ما، وليكن هذا التحدي هو فقدان الأسرة لعائلها، فلنا أن نفترض أن تعرض الأسرة لهذا التحدي يمكن أن ينتج عنه أحد احتمالين.

n الاحتمال الأول:

أن يكون ذلك التحدي معوقاً للأسرة في أداء وظائفها ومسؤولياتها ويؤدي إلى تفككها وفشل أفرادها.

n الاحتمال الثاني:

أن يكون ذلك دافعاً للأسرة لمزيد من التماسك وداعماً لها في أداء وظائفها بقوة أكبر، ويجعلها أكثر تمسكاً بالقيم والمعايير الأسرية التي نشأت عليها مما يساعدها على النجاح.

ثورة الاتصالات كتحدٍ ثقافي

نحن أمام مجموعة من الحقائق:

- n الثورة الاتصالية تشكل تحدٍ ثقافي عظيم الأثر دون شك.
- n لا يمكن للأسرة حجب وسائل الإعلام الحديثة عن أعضائها بأي شكل من الأشكال.
- n لابد من مواجهة المخاطر المتوقعة من التعامل مع وسائل الاتصال الحديثة.
- n ثمة تأثيرات سلبية من جراء الاستخدام المتزايد والمفرط لوسائل الاتصال الحديثة .

مخاطر الإنترنت

- n ساهم الإنترنت في تشكيل فضاء جديد؛ الفضاء الرمزي Cyber space
- n يعد الفضاء الرمزي إطاراً جديداً لعلاقات اجتماعية عابرة للقوميات والأماكن تدور بين أفراد تجمعهم اهتمامات مشتركة
- n يشكل الأفراد المتواصلون عبر الإنترنت جماعات لا ترتبط فيما بينها بقيم مشتركة أو شعور بالانتماء ولا تحكمها قواعد أو ضبط اجتماعي.
- n ساهم الإنترنت في تشكيل علاقات جديدة في مجتمع يطلق عليه المجتمع الافتراضي Virtual Community
- n الفضاء الرمزي الذي تشكلت فيه علاقات بين أفراد لا يعرف بعضهم البعض، يضمن تشكيل مجال خصب للتفاعل دون قيود الزمان أو المكان
- n لعبت هذه التجمعات الافتراضية دور سلبي أدى إلى مزيد من التفكك في النسق الأسري.
- n استخدام الشباب لشبكة الانترنت أفرز ظاهرة مدمني الانترنت الذين لا يستطيعون الاستغناء أو البعد عنه.
- n يدرك مدمن الإنترنت الواقع الفعلي ويتعامل معه من خلال الصور والأدوار التخيلية التي تفرضها عليهم الشبكة.
- n يؤدي ذلك إلى اكتساب بعض السلوكيات السلبية منها الميل إلى الفردية أو العزلة عن بقية أفراد الأسرة وضعف التفاعل الاجتماعي والعديد من المخاطر الأخرى .
- n لكن دعونا نسأل ما الظروف التي أدت إلى اتساع حجم المخاطر من الاستخدام المتزايد لوسائل الاتصال الحديثة وخصوصاً الإنترنت؟ فبدت الثورة الاتصالية بوصفها أكبر تحدٍ ثقافي في القرن الحادي والعشرين
- n ثمة حقيقة يجب توضيحها، ألا وهي أن تجاهل التحديات المرتبطة بوسائل الاتصال الحديثة أو التراخي في مواجهتها يجعلها تنتسح وتتزايد، كما أن التهويل من مخاطر

هذه الوسائل يقدم صورة غير صحيحة قد تضر أكثر مما تنفع، وهذا ما يجعلنا في احتياج إلى التمسك برؤية معتدلة ومتوازنة خلال التصدي للتحديات الثقافية المختلفة. n نعود مرة أخرى لنؤكد أن المسألة تتعلق بأسس وأساليب المواجهة، فلطالما تصدينا لمخاطر الاتصالات الحديثة من باب رد الفعل، حيث ننتظر ظهور النتائج السلبية، ثم نسعى إلى مواجهتها، على أن الأمر يحتاج إلى مواجهة فاعلة تتعامل مع هذا التحدي الثقافي بإيجابية، من خلال منهج إسلامي معتدل، لا يعتمد على المنع، لأن ذلك مستحيل، ولا يتحقق بوسائل الرقابة المستتدة، لأن الاستبداد الأسري لا يمثل وسيلة تربوية ناجحة .

الدخول في التجمعات الافتراضية لن يكون سلبياً إذا كان الفرد يتمتع بعلاقات أسرية واجتماعية سوية، وهذا يحتاج جهداً إضافياً من الأسرة من أجل تعزيز التواصل الاجتماعي العائلي، وتأكيد صلة الرحم، وعلاقات الجيرة والصحة المباشرة. إن الاهتمام بالمتطلبات المادية على حساب العلاقات الإنسانية يضعف العلاقات الأسرية، ويميل بالأسرة إلى الفردية والعزلة الاجتماعي، وهذا ما يباه ديننا الحنيف، لذلك فإن تقوية شبكة العلاقات داخل الأسرة وفي المحيط العائلي يؤمن الأسرة من مخاطر التأثيرات السلبية للثورة الاتصالية الحديثة.

وأخيراً لا بد من تكاتف جميع أفراد الأسرة للحفاظ على تماسك النسيج الأسري. مع التأكيد على التعامل الحكيم عند توجيه الشباب من خلال الضوابط الأخلاقية والدينية، حتى لا نجعل القيم والضوابط قيود على الإبداع والفكر الخلاق. وهذا يحتاج إلى تربية الأبناء على الاستقلالية وبناء الذات، والحرية في إطار المسؤولية الاجتماعية والدينية.

والله الموفق